ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

ملاحظات حول تطور الحياة الفكرية بالجزائر في عهد الموحدين

أ.د. حاجيات عبد الحميد
جامعة تلمسان

تاريخ الاستلام: 2016/10/10 تاريخ القبول: 2017/02/12

الملخص:

يعتبر القرن السادس الهجري الثاني عشر للميلاد، مرحلة حاسمة في تاريخ المغرب الإسلامي عامة، و تاريخ الجزائر خاصة، سواء في المجال السياسي أو في المجال الحضاري. و قد عرفت بلاد الجزائر تطورا هاما في المجال الفكري خلال هذه الفترة يتجلى بصفة خاصة في الدينية. و من أهم عوامل هذا التطور ، ظهور دعوة المهدي ابن تومرت، و نشأت دولة الموحدين على أسس اعتقادية و سياسية و تشريعية و أخلاقية، مما أدى إلى تحولات عميقة في سائر هذه المجالات. و في المجال السياسي ، يمكن القول بأن المغرب الأوسط أصبح لأول مرة في تاريخه ، أيام المرابطين، منطقة موحدة ، حيث أنه صار يشكل ولاية ، مقر ولايتها تلمسان ، وعلى رأسها أحد أمراء المرابطين ، مما وضع حدا للصراعات التي كانت قائمة بين القبائل المتواجدة فيها ، وأبعد عنها أطماع بني زيري و بني حماد .وبذلك عم الأمن بلاد المغرب الأوسط و انتشرت فيها الرخاء ، وخطت خطوات بعيدة نحو الازدهار العمراني .

وفي أوائل القرن السادس الهجري، الثاني عشر للميلاد، ظهرت دعوى المهدي ابن تومرت المناهضة للمرابطين ، والمستمدة أصولها من أراء المعتزلة حول صفات الله تعالى المتمثلة على الخصوص في نظرية التوحيد ، وإنكار كل ما يشعر فكرة التجسيم. واعتمد إبن تومرت في ما يخص الجانب التشريعي، على ظاهر نصوص القرآن الكريم و الحديث ، آخذا في هذا المجال المذهب الظاهري ، متهما فقهاء المذهب المالكي بالانقطاع لدراسة كتب الفروع. وفي المجال السياسي، أخذ ابن تومرت نظرية المهدوية عن الشيعة الإسماعلية ، وادعى العصمة، فحظي بتأييد جماعة من الأتباع.

الكلمات الدالة:

الحياة الفكرية ، الجزائر، المغرب الأوسط، الموحدون، تلمسان.

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

العنوان بالإنجليزية:

Notes on the evolution of intellectual life in Algeria during the Almowahidin

.Abstract:

Due to the splendor and luxury attained by the Umayyad state in al-Andalus, the practice of concealing the ruler behind screens was considered to be of great importance in official celebrations, religious ceremonies, and during the reception and sending-off of armies. When the oath of allegiance was given to a new ruler, the most important men of state were temporarily given the task of shielding the caliph behind curtains during the entry of visitors and well-wishers. These sessions required a special arrangement as each person had his assigned place.

Key words:

Intellectual life, Algeria, Middle Morocc, Almowahidoune, Tlemcen.

يعتبر القرن السادس الهجري الثاني عشر للميلاد، مرحلة حاسمة في تاريخ المغرب الإسلامي عامة، و تاريخ الجزائر خاصة، سواء في المجال السياسي أو في المجال الحضاري. و قد عرفت بلاد الجزائر تطورا هاما في المجال الفكري خلال هذه الفترة يتجلى بصفة خاصة في الدينية. و من أهم عوامل هذا التطور ، ظهور دعوة المهدي ابن تومرت، و نشأت دولة الموحدين على أسس اعتقادية و سياسية و تشريعية و أخلاقية، مما أدى إلى تحولات عميقة في سائر هذه المجالات [(1)] .

التحولات الفكرية في عهد الموحدين:

و يلاحظ أن بوادر هذه التحولات ظهرت منذ قيام دولة المرابطين، و توسعا في اتجاه سائر أنحاء المغرب الأوسط . و ذلك أن هذه الدولة نشأت على أساس الإصلاح الديني و التمسك بعقيدة أهل السنة و الفقه المالكي، فحاربت البدع، و لا سيما بدع قبيلة برغواطة في ناحية تامسنا ، غربي المغرب الأقصى. و في عهد المرابطين عم المذهب المالكي سائر أنحاء الدولة ، و كثر الاهتمام بالعلوم الدينية ، و بخاصة الفقه ، لحاجة الناس إلى معرفة مختلف المسائل الدينية من عبادات و معاملات ، و لحاجة الحكام إلى إصدار الأحكام الشرعية لمختلف القضايا. و مما ساعد أيضا على تنظيم العلاقات بين مختلف أقطار

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

المغرب الإسلامي آنذاك، ازدهار الحركة التجارية فيها ، و خصوصا التجارة مع بلاد السودان، جنوب الصحراء. فكان ذلك ، بالإضافة الى انتصار المذهب المالكي على غيره من المذاهب ، اثر فعال في تغلغل الإسلام في مختلف أنحاء الدولة ، و انتشار اللغة العربية في المدن و المراكز التجارية.

و في المجال السياسي ، يمكن القول بأن المغرب الأوسط أصبح لأول مرة في تاريخه ، أيام المرابطين، منطقة موحدة ، حيث أنه صار يشكل ولاية ، مقر ولايتها تلمسان ، وعلى رأسها أحد أمراء المرابطين ، مما وضع حدا للصراعات التي كانت قائمة بين القبائل المتواجدة فيها ، وأبعد عنها أطماع بني زيري و بني حماد .وبذلك عم الأمن بلاد المغرب الأوسط و انتشرت فيها الرخاء ، وخطت خطوات بعيدة نحو الازدهار العمراني .ويمثل ذلك بصفة خاصة في تأسيس مدينة تلمسان الجديدة (تاجرارت) ، وتشييد مسجدها الأعظم ، ومسجد مدينة الجزائر . غير أن دعوى المرابطين الإصلاحية ، سرعان ما فقدت طابعها التجديدي ، حيث إن علماءها و فقهاءها لم يتفتحو على مختلف النظريات و التيارات الفكرية ، التي ظهرت في المشرق الإسلامي ، ولا سيما أراء الأشاعرة ، بل تقيدوا بآراء أهل الحديث ، الآخذة بالنصوص دون الرأي ، و أبطلو نظريات المعتزلة و الأشاعرة ، و منعوا العامة من الاشتغال بعلم الكلام ، مما أدى إلى اتجاه الدولة نحو الجمود و التقليد في المجال الفكري و الديني (2) .

المهدي إبن تومرت و تأسيس دولة الموحدين :

وفي أوائل القرن السادس الهجري، الثاني عشر للميلاد، ظهرت دعوى المهدي ابن تومرت المناهضة للمرابطين ، والمستمدة أصولها من أراء المعتزلة حول صفات الله تعالى المتمثلة على الخصوص في نظرية التوحيد ، وإنكار كل ما يشعر فكرة التجسيم.(3) واعتمد إبن تومرت في ما يخص الجانب التشريعي، على ظاهر نصوص القرآن الكريم و الحديث ، آخذا في هذا المجال المذهب الظاهري ، متهما فقهاء المذهب المالكي بالانقطاع لدراسة كتب الفروع ، و إهمال النظر في القرآن و الحديث لاستخراج الأحكام الشرعية . (4)

وفي المجال السياسي، أخذ ابن تومرت نظرية المهدوية عن الشيعة الإسماعلية ، وادعى العصمة (5) فحظي بتأييد جماعة من الأتباع ، و من أوائلهم عبد المؤمن بن علي الكومي ، و عبد الواحد الشرقي ، و البشير الونشريسي ، و بعض الأنصار من قبائل المصامدة .فحارب بهم قبائل السوس الأقصى التي

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

امتنعت من الانضمام إلى دعوته ، و انتصر عليها . و بعد وفاة ابن تومرت سنة 524 هـ، واصل الموحدون حركتهم بقيادة عبد المؤمن بن علي في المغربين الأوسط و الأقصى، إلى أن انتصروا على المرابطين، وتم تأسيس الدولة الموحدية باستيلائهم على مراكش في شوال سنة 541 هـ ، و بعد تنظيم شؤون الدولة، ة تعزيز نفوذها، وجه عبد المؤمن جهوده نحو بلاد إفريقية و تم إلحاقها بدولة الموحدين بالاستيلاء على مدينة المهدية سنة 555 هـ ، و طرد الغزاة النورمان من بلاد إفريقية [(6)]. و بذلك عظمت شهرة عبد المؤمن، و أصبحت الدولة الموحدية تحتل مكانة مرموقة بين الدول الإسلامية. و علي عبد المؤمن و خلفاؤه بالجهاد للدفاع عن أراضي المسلمين بالأندلس، مما شغلهم، إلى حد ما ، عن القيام بالإنجازات الحضارية في الجزائر، و التفرغ لها سواء في المجال المعماري أو الفكري.

أهم التحولات الفكرية بالجزائر في عهد الموحدين:

و على كل فإن الدعوة الموحدية شكلت منطلقا لتجديد ثقافي هام، يتمثل أساسا في التفتح على نظريات المعتزلة و الأشاعرة في المجال الاعتقادي، و على علوم الحكمة من فلسفة و منطق و غير ذلك، مما أدى إلى انتقال الحياة الثقافية بالجزائر، و غيرها من أقطار المغرب الإسلامي، من مرحلة التقليد و النقل إلى مرحلة التفتح و الاجتهاد و الإبداع.و يلاحظ أن الإتجاه نحو هذا التجديد الفكري كان تدريجيا، حيث إن رجال السلطة لم يصدروا أوامر صارمة لتطبيق نظريات المهدي ابن تومرت في هذا المجال إلا خلال عهد يعقوب المنصور (580- 595 هـ)، لانشغالهم بقمع الثروات و بالجهاد في الأندلس، و اقتصار اهتمامهم بالقضايا الفكرية على اختيار القضاة و الكتاب من بين الفقهاء و الأدباء المؤيدين لدعوتهم، و مكافأة الشعراء الذين منحوهم، و استدعاء مشاهير العلماء إلى بلاطهم، و تشجيع الإقبال على دراسة تأليف الأشاعرة. و يمكن اعتبار ذيوع تأليف أبي حامد الغزالي و غيره من الأشاعرة و كتب الحكمة، في أقطار المغرب الإسلامي، خلال القرن السادس الهجري، من أهم عوامل التحول الفكري، الذي لم يفتأ يتزايد كثافة، و يتجلى ذلك في مختلف المجالات[(7)] .

ففيما يخص العلوم الدينية، التي حظيت بناية خاصة، يمكن القول بأن الإنتاج العلمي تأثر، عند بعض العلماء بالاتجاه الجديد، منذ أوائل القرن السادس الهجري، أي في أواخر عهد المرابطين، لاسيما في علم التفسير، الذي هو أقرب العلوم الدينية إلى نظريات المعتزلة و الأشاعرة الاعتقادية. وقد

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

اشتهر في هذا المجال العالم المفسر أبو محمد عبد الحق بن أبي بكر بن غالب بن عطية الغرناطي(ت. سنة 542هـ)، مؤلف كتاب المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، و اعتمد فيه على المنهجية السنية الكلامية، التي تزعمها الأشاعرة في مجال تأويل متشابه القرآن، و تفهمه استنادا إلى الطريقة التفسيرية البلاغية، التي وضعها عبد القاهر الجرجاني. و يمتاز تفسير ابن عطية بطابعه النقدي، الرامي إلى دفه الشبه، و تخليص الحقائق، و تحرير ما هو محتاج إلى تحري[8]، مما يفسر شهرته و ذيوعه في بلاد المغرب الإسلامي أيام الموحدين.

أما علم الحديث، فإنه حظي بإقبال كبير من علماء هذه البلاد في عهد الموحدين، نظرا للاهتمام بالقرآن و الحديث، في استنباط الأحكام الشرعية، الذي دعا إليه ابن تومرت و خلفاؤه، كما عني أيضا كثير من العلماء بأصول الفقه، و اعتمدوا كثيرا على كتاب المستصفى لأبي حامد الغزالي، و بعلم الكلام، و اقتفوا فيه أثر كبار الأشاعرة، و بخاصة الجويني و أبي حامد الغزالي.

مشاهير أعلام الجزائر في عهد الموحدين :

و من مشاهير العلماء و رجال الدين، الذين ساهموا في تطور العلوم الدينية بالجزائر في عهد الموحدين:

1- أبو الحسن علي بن أبي القاسم عبد الرحمان بن أبي قنون التلمساني (ت سنة 557هـ). كان فقيها و أصوليا، رحل إلى الأندلس، و أخذ عن أبي علي الصدفي و غيره، و جال في أقطار المغرب، وولى القضاء بمراكش ثم تلمسان. و من تأليفه كتاب المقتضب الأشفى في اختصار المستصفى[9].

2- أبو يعقوب يوسف بن ابراهيم السدراتي الورجلاني (ت سنة 570هـ) هو من أشهر فقهاء الإباضية و علماءها. أصله من ورقلة ، نشأ بها ثم رحل إلى الأندلس، فأخذ عن أشهر علماءها، ثم تآليف عديدة، منها: تسير القرآن في سبعين جزء، وكتاب العدل و الإنصاف في أصول الفقه، و كتاب ترتيب مسند الربيع بن حبيب، في الحديث، و كتب أخرى في المنطق و الرياضيات و التاريخ([10]

3- أبو عبد الله محمد بن علي ابن الرمامة (ت . سنة 567هـ). نشأ في قلعة بني حماد، و أخذ بها الفقه و الحديث عن ابن النحوي. ثم رحل إلى بجاية و إلى الأندلس. ثم انتقل إلى فاس،

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

حيث ولي القضاء سنة 536هـ و كان عاطفا على كتاب البسيط لأبي حامد الغزالي و من تأليفه تسهيل المطلب في تحصيل المذهب، و كتاب التقصي من فوائد التقصي و كتاب التبيين في شرح التلقين، في الفقه[11]

4- أبو علي حسن بن علي بن محمد المسيلي (ت.بعد سنة 581 هـ). أصله من المسيلة و نشأ ببجاية، و صحب الشيخ أبا مدين شعيب الإشبيلي، و كان معجبا بكتب أبي حامد الغزالي. ولي القضاء ببجاية ثم تخلى عنه عندما استولى بنو غانية على بجاية: و بها توفي. و من تأليفه: التفكر قيما تشمل عليه و الآيات من مبادئ و الغايات، سلك فيه مسلك الغزالي في كتاب إحياء علوم الدين، فسمي أبا حامد الصغير. و له كتاب التذكرة، في أصول الدين، و كتاب النبراس في الرد على مذكرة القياس[12].

5- عبد الحق الإشبيلي البجائي.(ت. سنة 582هـ).قدم من الأندلس إلى بجاية و استقر بها.و نبغ في الحديث و الفقه و الوعظ. و من تأليفه: الأحكام الكبرى، و الأحكام الصغرى، في الحديث، و هما أشهر كتبه. و كان عاكفا على اشتغال بالتعليم فتخرج على يده كثير من العلماء. و ذكر أبو العباس الغبريني أنه قد آخى الشيخ أبا مدين في بجاية "أقر له بالسبق في طريق الحق"[13].

6- الشيخ أبو مدين شعيب بن الحسين الأنصاري الإشبيلي (ت. سنة 594هـ)، الولي الصالح المشهور ولد في قرية تدعى قطنيانة، قرب إشبيلية، و رحل إلى بلاد المغرب، فأخذ بفاس عن بعض العلماء و الصلحاء، مثل ابن حرزهم و أبي يعزى و غيرهما. ثم رحل إلى بلاد أفريقية، و استقر ببجاية مدة طويلة فدرس الحديث و التصوف و تخرج عليه كثير من الطلبة و المريدين. و من الكتب التي كان يدرّسها ببجاية: الرسالة القشيرية، فكان يتحدث أيضا عما جاء في بدايتها حول مشاهير رجال التصوف و منها أيضا كتاب المقصد الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى لأبي حامد الغزالي و كتاب إحياء علوم الدين، للغزالي أيضا ، و يستفاد من هذا الخبر، و من خبر الصلة الوثيقة التي كانت تربطه بالعالمين الشهيرين عبد الحق الإشبيلي و أبي علي المسيلي، أن فكر الشيخ أبي مدين كان يتسم بالاعتدال و نبذ التطرف في الاعتقاد و الممارسات الدينية. و في سنة 594 هـ، استدعاه الخليفة الموحدي يعقوب منصور إلى مراكش فتوجه إليها، و لكنه مرض في طريقه، و توفي قرب تلمسان فدفن

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

بقرية العُبّاد خارج المدينة. و لأبي مدين مكانة سامية في التصوف المغربي، يشهد على ذلك العديد من الطرق الصوفية التي تنتسب إليه. و له رسالة أنس الفريدة و نزهة المريد في الحكم، و ديوان شعر الزهد. (14)

7- أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمان التجيببي (ت. سنة 610هـ). أصله من أشبيلية محدث و واعظ، روى عن ابن بشكوال و أبي طاهر السّلفي و غيرهما، و قدم إلى بلاد المغرب، فحدّث بفاس، سنة 514 هـ، ثم بسبتة و تلمسان فاستقربها و بها توفي. ألف معجم شيوخه، و معجم شيوخ أبي طاهر السّلفي. و له أيضا كتاب المواعظ و الرقائق (15).

8- أبو عبد الله محمد بن ابراهيم البجائي الأصولي(ت. سنة 612هـ). أصله من إشبيلية، و نشأ ببجاية. رحل إلى المشرق لطلب العلم، فأخذ عن كثير من مشاهير العلماء و نبغ في الفقه و في أصول الفقه، فاشتهر بالأصولي. ولي قضاء بجاية و مرسية و مراكش و توفي ببجاية. و له تقييد على كتاب المستصفى لأبي حامد الغزالي (16)

دور الموحدين في التطور الفكري بالجزائر:

و يستنتج مما سبق ذكره أن هذا التطور الفكري نحو التفتح غلى آراء الأشاعرة و مناهجهم في التحليل و التأويل قد بدأ قبيل تأسيس دولة الموحدين، و بخاصة في بجاية و غيرها من مدن أفريقية، و أنه استمر بمزيد من القوة في سائر انحاء المغرب الاسلامي، خلال عهد الموحدين، لما لقي عند هؤلاء من التأييد و التشجيع ، و لما اسفر عنه توحيد اقطار المغرب الاسلامي آنذاك من توثيق العلاقات الثقافية بين اهالي هذه الاقطار، و تزايد حركة هجرة الاندلسيين الى بلاد شمال افريقيا. و الجدير بالملاحظة ان ما قيل حول اضطهاد الموحدين لفقهاء المنهب المالكي، و الزامهم نبذ الاشتغال

بالفروع، لا يخلو من المبالغة. و قد تحدث عبد الواحد المراكشي، في هذا الشأن، فذكر أن يعقوب المنصور الموحدي هو الذي دعا الى الاخذ بالكتاب و السنة في الاحكام الشرعية، " و امر بإحراق كتب المذهب بعد أن يجرد ما فيها من حديث رسول الله صلعم و القرآن الكريم، ففعل ذلك، فاحرق جملة منها من سائر البلاد، كمدونة سحنون و كتاب ابن يونس، و نوادر ابن ابي زيد و مختصره، و كتاب التهذيب للبرادعي، و واضحة ابن حبيب، و ما جانس هذه الكتب و نحا نحوها ". ثم يضيف قائلا: "

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

لقد شهدت منها، و انا يومئذ بمدينة فاس يؤتى منها بالأحمال، فتوضع و يطلق فيها النار". و يقول ايضا : " و كان قصده في الجملة محو مذهب مالك و ازالته من المغرب مرة واحدة، و حمل الناس على الظاهر من القران و الحديث. و هذا المقصد بعينه كان مقصد ابيه و جده، الا انهما لم يظهراه و اظهره يعقوب هذا."[17]

و الظاهر أن يعقوب المنصور لم يوفق في تحقيق هذا الهدف، الذي كان يتطلب مثابرة في تطبيق الامر بإحراق كتب المذهب المالكي، و حمل الفقهاء على ابطاله، و مراقبة صارمة للعمل بمقتضاه، نظرا لرسوخ المنهب المالكي في اقطار المذهب الاسلامي و تمسك الناس به. و كان العبيديون و بنو زيري قد فشلوا قبل ذلك في تطبيق عملية محو المذهب المالكي، خلال القرن الرابع الهجري. ثم أن الخلفاء الموحدين لم يتفرغوا كليا لاضطهاد فقهاء المذهب المالكي، لا نشاغلهم بالجهاد و قمع الثورات، و كان اكبر انتصار للموحدين على النصارى بالأندلس في معركة الارك في عهد يعقوب المنصور. و لا شك ان هذا النصر لم يتحقق الا بفضل جهود كبرى و عمل دؤوب، مما يسمح بمواصلة عملية فرض المذهب الظاهري في كل انحاء المغرب الاسلامي. اضف الى ذلك ان مدة خلافة يعقوب المنصور لم تتجاوز ستة عشر عاما قضى معظمها في الجهاد[18]، و مواجهة ثورة بني غانية[19]. اما خلفاء يعقوب المنصور، فلم يتمكنوا من المضي في هذا الاتجاه لما لحقهم من هزائم و نكسات بالأندلس و إفريقية[20].

موقف الموحدين في التيار الصوفي :

و فيما يخص موقف الموحدين في التصوف و الصوفية، فيستبعد أن يكون موقفا عدائيا لما كان يمتاز به عبد المؤمن و خلفاؤه، إلى آخر القرن السادس الهجري، من علم و عدل و تقوى، و عطف على الفقراء و اعتناء بالأمر بالمعروف و النهي عن المنكر، مما يتفق إلى حد ما مع اتجاه التيار الصوفي، و لما كان يتصف به كثيرا من الزهاد و الصلحاء من اعتدال في معتقداتهم. و الظاهر أن ما عرفه التيار الصوفي من ذيوع في مختلف أنحاء المغرب الإسلامي، في عهد الموحدين، لم يكن ليقلق عبد المؤمن و خلفاؤه و لم يشكل قط خطرا على عرشهم، بل كان يمثل عنصرا هاما من العناصر الداعية إلى توحيد الجهود للدفاع عن أراضي المسلمين في سائر أقطار المغرب الإسلامي . و ذلك أن الحروب الصليبية التي اندلعت في آخر القرن الخامس الهجري، الحادي عشر للميلاد، لم تفتأ تهدد كثيرا من البلاد الإسلامية شرقا و غرباء،

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

خلال عهد الموحدين. فكان لخطر الغزو الصليبي، و ما مني به أهالي بلاد الشام و غيرها من الأضرار الجسيمة من جراء ذلك [21]، أثر قوي في حث المسلمين على توحيد صفوفهم و التصدي لمواجهة عدوان الغزاة. وكان من الضروري وضع حد للصراعات المذهبية، والفتن التي كانت تشغلهم عن مقاومة الأعداء، وتحول دون مواجهة هؤلاء بقوة و نجاعة .

ومن العلماء الذين عاصروا هذه الأحداث، وتفطنوا لضرورة التصدي للغزو الصليبي، أبو حامد الغزالي، الذي سخر السنوات الأخيرة من حياته لخدمة الاسلام و إنماء الشعور الديني، و ألف كتبا عديدة، مثل المنقذ من الضلال، و إحياء علوم الدين، و الاقتصاد في الاعتقاد، من أجل المساهمة في تحقيق هذا الهدف .ويمتاز فكر أبي حامد الغزالي بالدعوة إلى التزام الاعتدال ، ونبذ الغلو و التطرف في مجال الاعتقاد، و الحث على التآزر و التعاون و التعاطف ، وتعميق الشعور الديني في أداء الطاعات ، و التحلي بالتواضع و الإخلاص و العفاف و غير ذلك من القيم السامية ، و الجهاد في سبيل الدفاع عن الوطن .

و يبدو أن أبا حامد الغزالي كان يدرك جيدا ما كان التصوف يحمل في طياته من عناصر إيجابية في مجال الإصلاح و التجديد ، وما كان الإسلام بحاجة إليه لاسترجاع حيويته وقوته المادية و المعنوية . وقد أعلن في كتاب المنقذ من الضلال أن الصوفية يمثلون أقرب تيار فكري للوصول إلى الحقيقة ، وأنجع سبيل للفوز بسعادة الدنيا و الآخرة [22] .فكان لهذا الاتجاه ، الذي حظي بقبول واسع النطاق ،أثر ملحوظ في زرع بدور توحيد جهود المسلمين ،وتوجيهها نحو دفع خطر الغزاة الصليبيين، و التصدي لهجماتهم المتكررة ، بإرادة قوية وعزيمة وتصميم ، واعتبار ذلك من أبرز مظاهر الجهاد في سبيل الله ، ومن أنبل الأعمال و الطاعات .وفي هذا الصدد ، تجدر الإشارة إلى أهمية مساهمة المجاهدين من أتباع التيار الصوفي في الحروب التي خاضها المسلمون ضد الصليبيين في بلاد الشام ومصر ، وضد النصارى في الأندلس على الخصوص .

موقف يعقوب المنصور من الشيخ أبي مدين:

غير أن ما ورد في كتاب التشوف إلى رجال التصوف لابن الزيات التادلي، حول وفاة الشيخ أبي مدين قد يوهم بنوعٍ من اضطهاد الموحدين للصوفية أيام يعقوب المنصور . وقد حكى ابن قنفذ القسنطيني

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

قصة وفاة الشيخ أبي مدين الإشبيلي ،اعتمادا على كتاب التشوف ، فقال " ولما أشهر أمره، وشاع في الآفاق ذكره، سعي به عند خلفاء بني عبد المؤمن بمراكش، فأمر السلطان بطلوعه من بجاية إلى حضرته، وكتب إلى والي بجاية بالوصية عليه أن يحمل خير محمل. فأخذ الشيخ أبو مدين في السفر، وشق ذلك على كثير من أصحابه، و خافوا أن يكون وراء ذلك ما يغير النفوس، فقال لهم : شعيب رجل كبير ، لا قوة له للمشي ، ومنيته قدرت بغير هذا المكان ، و لا بد للوصول إلى موضع المنية ، فقيض الله لي من يحملني إلى مكان الدفن برفق ، و يستوقفني إلى مرام المقادير أحسن سوق ، و القوم لا أراهم و لا يروني .فطابت نفوسهم ...و ارتحل إلى أن وصل إلى تلمسان ، فلما رأى العباد، قال رفقائه : ما يقال لهذا المكان ؟فقيل له : مليح الرقاد ...وقال بعضهم أنه توفي بيسر ...وحمل إلى العباد فإتفقت هناك منيته ، وشرفت تلك البقعة بتربته " [23] .

ويلاحظ أن قصة وفاة الشيخ أبي مدين،كما رواها ابن الزيات التادلي، ونقلها عنه ابن قنفد القسنطيني، تحتاج إلى نقد وتحليل وتحقيق وتعليق .فبينما لا نرى مجالا للشك فيما يخص الأمر الذي وجهه يعقوب المنصور لوالي بجاية بحمل الشيخ أبي مدين "خير محمل " من بجاية إلى مراكش، لأن هذا الأمر قد تم تنفيذه فعلا، يبدو أن ما قيل حول تشكك أصحاب الشيخ في نية السلطان الموحدي، وتخوفهم عليه أن يصيبه شر، لم يكن إلا مجرد شك أبداه أصحاب الشيخ، الغالب على الظن أنه لم يكن له أساس من الصحة، وكذلك الشأن بالنسبة لوشاية بعض الناس حول ما لقيته دعوته من شهرة ببجاية، و خطرها على الدولة الموحدية .

فمما يدعو إلى التحفظ حول سبب الأمر بحمل الشيخ أبي مدين إلى مراكش، أن الخليفة الموحدي يعقوب منصور كان من أهل الورع و التقوى و العدل، و أنه كان ذا رأي وحزم ودين وسياسة، ويستبعد أن يظلم أهل الصلاح والزهد. فابن خلكان، مثلا، يصفه قائلا: " كان يعقوب المنصور ...مجربا للأمور ...قام بالأمر أحسن قيام ،ورفع راية الجهاد، ونصب ميزان العدل، وبسط أحكام الناس على حقيقة الشرع، ونظر في أمور الدين و الورع، و أقام الحدود حتى في أهله و عشيرته الأقربين [24]. ويتفق ابن عذاري مع هذا الوصف ليعقوب المنصور ، فيقول عنه :" وكان شجاعا مقداما ، عظيم الصريمة على أعدائه ، لا تضيع عنده فضيلة أحد من رجاله، ولا يغيب عنه شيء من أحوال رعيته، ولا يجترئ أحد

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

على مخادعته. وكان يحب الصالحين، ويدني مجالستهم ، ويستدنيهم من أقاصي طاعته "[25].ويفهم من هذه الجملة الأخيرة أن يعقوب المنصور كان يولي الصالحين عناية خاصة، ويعقد المجالس لسماع وعظهم و إرشادهم، ودعائهم له بالمغفرة والرضوان و التأييد أنه كان يبعث للولاة بإرسالهم من أقاصي البلاد التي تحت طاعته، تبركا بهم ورغبة في دعائهم له بالتوفيق و النصر .

و يذكر عبد الواحد المراكشي في كتاب المعجب، و كان معاصرا ليعقوب المنصور، أن هذا الأخير تعرض في بداية عهده، إلى مناقشة بعض الأمراء من أقاربه على العرش، فأمر بقتل عميه عمر و أبي الربيع سليمان، ثم أظهر بعد ذلك زهدا و تقشفا و خشونة ملبس و مأكل، و انتشر في أيامه للصالحين و المتبتلين و أهل العلم الحديث صيت، و قامت لهم سوق و عظمت مكانتكم منه و من الناس. و لم يزل(يعقوب المنصور) يستدعي الصالحين من البلاد، و يكتب إليهم يسألهم الدعاء، و يصل من يقبل صلته منهم بالصلات الجزيلة .... و لما خرج إلى الغزوة الثانية سنة اثنين و تسعين (و خمس مئة) .... كتب قبل خروجه إلى جميع البلاد بالبحث عن الصالحين و المنتمين إلى الخير و حملهم إليه. فاجتمعت له منهم جماعة كبيرة كان يجعلهم كلما سار ، بين يديه فإذا نظر إليهم قال لمن عنده: هؤلاء الجند لا هؤلاء ، و يشير على العسكر." ثم يضيف عبد الواحد المراكشي قائلا: "و لما رجع أمير المؤمنين أبو يوسف(يعقوب المنصور)من وجهه هذا، أمر لهؤلاء القوم (أي الصالحين) بأموال عظيمة، فقبل منهم من رأى القبول، ة لا نقص أولئك قبولهم"[26]

فإذا اعتبرنا ما اتصف به يعقوب المنصور من تقى و ورع و زهد و تقشف و تقدير للصالحين و طلب لدعائهم بالنصر في جهاده و حروبه، اتضح جليا أن الغرض من حمل شيخ أبي مدين معززا و مكرما إلى مراكش، يرجع إلى رغبة الخليفة الموحدي في التبرك بالولي الصالح و نيل ر عاية الله و رضاه، و توفيقه في جهاده، و نصره عل العدو و يمكن القول بأن التيار الصوفي لم يضطهد في عهد الموحدين، بل حضي بعنايتهم، و انتشر خلال عهدهم في مختلف أقطار المغرب الإسلامي.

و خلاصة القول أننا نستنتج من هذا العرض الموجز للتطور الفكري بالجزائر، خلال القرن السادس الهجري ، الثاني عشر للميلاد، أن ميزه الأساسية هي الاتجاه نحو التوازن بين الشريعة الحقيقية بين الأدلة العقلية و النصوص الشرعية، بين الظاهر و الباطن، و ذلك يتجنب التطرف، و بالاعتدال في

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

النظريات و لاسيما في المجال الاعتقادي و ان لابن تومرت و الخلفاء الموحدين دور ملحوظ في هذه التحولات الفكرية، مما ادى إلى نمو الثقافة العربية الإسلامية، التي تواصل نموها بعد ذلك، و عرفت أوج ازدهار خلال القرن الثامن الهجري، الرابع عشر للميلاد، عصر أبي عبد الله الآبلي و تلميذه عبد الرحمن ابن خلدون.

الهوامش :

[1]– حول تاريخ الموحدين السياسي و الحضاري، انظر: عبد الواحد المراكشي، المعجب في تلخيص أخبار المغرب ، القاهرة 1949 ابن عذاري المراكشي، البيان المغرب، قسم الموحدين ، بيروت دار المغرب الإسلامي 1985، محمد عبد الله عنان، عصر المرابطين و الموحدين، في المغرب و الأندلس ، القسم2 القاهرة 1964 عبد الله علي علام، الدعوة الموحدية بالمغرب، القاهرة 1964 أحمد عزاوي ، رسائل موحدية 2 ج، 1995– 2001.

[2]–حول تاريخ المرابطين، أنظر: ابن عذاري ، المصدر السابق ج 4 بيروت ، 1967 أسباخ تاريخ الأندلس في عهد المرابطين الموحدين، ترجمة محمد عبد الله عنان، بيروت 1964 عبد الرحمان ابن خلدون ،كتاب العبر، ج 6 بيروت 1957.

[3]–أنظر: عبد الله علي علام ، المرجع السابق ، ص 143– 161.

[4]–يلاحظ أن هذا الرأي لم يدخل في حيز التطبيق إلا في عهد يعقوب المنصور الذي حاول فرض المذهب الظاهري في المغرب الإسلامي. أنظر محمد عبد الله عنان، المرجع السابق ، ص 239–241.

[5]–نفسه ص 215–196.

[6]–البيذق ، أخبار المهدي إبن تومرت ، تحقيق عبد الحميد حاجيات، ص 52–116، إبن عذاري، المصدر السابق ص 67–15.

[7]–عمر فروخ ، تاريخ الأدب العربي ، ج5، الأدب في المغرب ة الأندلس، عصر المرابطين و الموحدين ،ص 359–386 ؛ محمد المنوني، العلوم و الأدب و الفنون في عهد الموحدين تطوان 1950.

[8]–الشيخ محمد الفاضل ، بن عاشور، التفسير و رجاله ، ص 64–66.

[9]–عن أبي الحسن بن أبي قنون، أنظر: ابن الأبار ،التكملة ،ج2،ص 685–686؛ نفس المؤلف المعجم أصحاب القاضي أبي على الصدفي ، ص 288– 290؛ الحفناوي تعريف الخلف ج2 ص 258؛ يحي ابن خلدون بغية الرواد ،ج1 ص 100–101؛ عادل نويهض، معجم أعلام الجزائر ،ص270.

10–عن أبي يعقوب الورجلاني ، أنظر: عمر رضي كحالة، معجم المؤلفين ،ج13 ص 67 خير الدين الزركلي ، الأعلام ج9 ص 281 عادل نويهض المرجع السابق ص 341–342؛ بروكلمان، تاريخ الأدب العربي، الملحق 1 ص 692.

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

[11]–أنظر: ابن الأبار، المرجع السابق رقم 1710.

[12]–الغبريني، عنوان الدراية ، تحقيق رابح بونار ، ص 66–72، أحمد بابا التنبكتي، نيل الإبتهاج، على هامش الديباج لابن فرحون، ص 104.

[13]–الغبريني ، المصدر السابق ، ص 73 .ابن فرحون ،الديباج المذهب ، ص 75 ابن قنفذ ،أنس الفقير، ص 34–35.

[14]–إبن الزيات ، التشوف ، رقم 162، ص 316–325، إبن الأبار المصدر السابق ج2، رقم 2015 ص 715 ؛ المقري المصدر السابق ج2 ص 342–351، الغبريني، المصدر السابق ص 5–13، ابن قنفذ ،المصدر السابق ،ص 11–20 ،ابن عبد الملك المراكشي ،الذيل و التكملة ج4 رقم 245 ص 127–130 ؛ أحمد بابا التنبكتي ، المصدر السابق ، ص 127–129، ابن مريم المصدر السابق ص 108–114، ابن القاضي، جدوة الاقتباس ص 332.

[15]–المقري ،المصدر السابق ، ج2 ص 360، الكتاني فهرس الفهارس ، ج1 ص 191 ابن عبد الملك المراكشي ،المصدر السابق ، ج 5 ص 75 ؛ ابن القاضي ، المصدر السابق ص 171–172.

[16]–الغبريني ، المصدر السابق ص 184–187.

[17]–عبد الواحد المراكشي ، المصدر السابق ص 278–279.

[18]–محمد عبد الله عنان ، المرجع السابق ص 169–220.

[19]–نفسه، ص 140–168.

[20]–أنظر: نفس المرجع ص 249–368–496–580..

[21]–الحروب الصليبية في عهد الموحدين ، أنظر: عبد المنعم ماجد، العلاقات بين الشرق و الغرب في العصةر الوسطى ، بيروت ، 1966 ص31–200.

[22]–أبو حامد الغزالي ، المنقذ من الضلال ، تحقيق جميل صليبا و كامل عياد، بيروت ، دار الأندلس ، 1967 ص 32–37، 100–123.

[23]–ابن قنفذ القسنطيني ، المصدر السابق ص104.

[24]–الناصري السلاوي ، الاستقصاء ، ج2 ص 192–199.

[25]–ابن عذاري المراكشي المصدر السابق ص 170.

[26]–عبد الواحد المراكشي ، المصدر السابق ص 276–286 .حول عبد الواحد المراكشي ، المصدر السابق ،ص 276–286. حول يعقوب المنصور الموحدي ،أنظر: رشيد مولين ، عصر المنصور الموحدي، الرباط، مطبعة المطبعة الشمال الإفريقي ،1946.